

عوامل ضعف وسقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب عام ٤٧٦م

شهد القرن الثالث الميلادي نهاية النظام الذي أقامه الامبراطور اوغسطس بالفوضى وعدم الاستقرار السياسي فسحا المجال للدكتاتورية. وتعاقد الدكتاتوريات العسكرية أدت في آخر الأمر الى إلغاء نظام اوغسطس ذي المظهر الجمهوري برمته، والى احلال نظام استبدادي على غرار الأنظمة الشرقية، وتمّ هذا على يد الامبراطور دقلديانوس.

أثار ضعف روما وسقوطها اهتمام الباحثين في كل العصور، ووضعت لذلك تفسيرات كثيرة ومتباينة، فبينما أكد البعض على العامل السياسي وحملته مسؤولية السقوط، أبرز فريق آخر دور العوامل الأخرى : اقتصادية واجتماعية واخلاقية، ولعله من الصواب القول أنّ سقوط روما لا يُعزى الى عامل واحد، بل الى عوامل كثيرة تضافرت وعملت على اضعافها وعلى اسقاط امبراطوريتها العتيدة، وفيما يلي استعراض لهذه العوامل:

أولاً: العوامل السياسية والعسكرية

كانت مشكلة وراثة العرش الروماني من العوامل السياسية الرئيسة التي سببت الكثير من الفوضى السياسية، وأدت الى عدم الاستقرار في أنحاء الامبراطورية الرومانية، فلم يتطور خلال تأريخ الامبراطورية الطويل نظام ثابت لوراثة العرش، وكان الصراع بين المتنافسين على العرش يتكرر بعد وفاة كل امبراطور.

ولم تكن هذه المشكلة جديدة بالنسبة الى الامبراطورية، بل هي من أهم ماتميّز به تأريخها، والشيء الجديد في الأمر هو أنّ الفوضى التي كانت ترافق عادة اختيار الامبراطور الجديد، لم تعد تقتصر على روما، بل تعدتها الى أقاليم الامبراطورية الأخرى.

أمّا فيما يخصّ العوامل العسكرية فإنّ الجيش أخذ يتدخل أكثر فأكثر في الشؤون السياسية، بل وحتى في اختيار الامبراطور. وقد أدّى هذا التدخل الى سلسلة من الحروب الداخلية التي سببت بدورها تدمير الممتلكات ونهب المدن وخراب الريف.

وفي الوقت الذي يزداد فيه تورط الجيش في الشؤون السياسية فإنّ تغييراً جوهرياً طرأ على تركيبة الجيش الروماني الذي كان يتألف من المواطنين الرومان، وكان في الواقع مدرسة يتعلم

الفرد واجبات المواطنة الرومانية، وكان يقوده ضباط رومانيون جاءوا من أقاليم ذات صبغة رومانية أصيلة. ويقضي الضابط أو الجندي ما يقرب من العشرين عاماً في الخدمة العسكرية يتقاعداً بعدها، فيمنح راتباً تقاعدياً ملائماً أو قطعة من الأرض مناسبة. وهكذا يعود الى الحياة المدنية، بوصفه مواطناً صالحاً ليساهم في الحياة العامة. ولهذا صار الجيش الروماني بالنسبة للفرد وسيلة لتحقيق النجاح الاقتصادي والاجتماعي. واجتذب اليه خيرة المواطنين الرومان، ودأب الشباب في تهيئة أنفسهم للخدمة العسكرية، في حين تمتع المحاربون القدماء بالعز والاحترام.

ولكن الجيش الروماني منذ أوائل القرن الثاني لم يُعد بهذا الشكل، فلم يكن العنصر الروماني هو العنصر الوحيد الذي يتألف منه الجيش، بل دخلته عناصر أخرى غير رومانية، أمّا العناصر الرومانية التي كانت لا تزال فيه فقد جاءت من اقاليم رومانية نائية ومن مناطق ريفية بشكل خاص، وكان تأثيرها بالمدنية الرومانية ومحدوداً وتفهمها للمثل الرومانية وللنظام السياسي الروماني ضئيلاً جداً.

فالسلم والرفاه اللذان سادا الامبراطورية الرومانية في القرن الأول للميلاد جعلاً سكان المدن الرومانية يفضلون حياة الاستقرار والرغد على الحياة العسكرية المضنية والمحفوفة بالمخاطر. هذا من جهة، ومن جهة أخرى لم تُعد الخدمة العسكرية تتعدى حراسة الحدود، ولم يُعد فيها ما يشبع روح المغامرة والحرب، ولهذا انصرف الكثيرون من الرومان عن الخدمة في الجيش، لأنها أصبحت مملة رتيبة.

وجوبهت الحكومة الرومانية بهذا العزوف عن الخدمة العسكرية فاضطرت الى قبول انخراط من يود الانخراط فيه دون تمييز. وفقد الجيش الروماني تدريجياً صلته بالسكان الأكثر اصطباً بالصيغة الرومانية. وصار رجاله يمثلون فئة منفصلة تتحكم فيها النزعة الاقليمية أكثر مما تتحكم فيها روح المواطنة الرومانية. ولم ينصرم القرن الثاني حتى صار الجيش الروماني يتألف كله تقريباً من عناصر ريفية (رومانية وغير رومانية)، لم تمسها الحضارة إلا قليلاً، وأصبح ولاء الجندي لا يتعدى حدود كتيبته وضباطه.

حدث كل هذا في الوقت الذي ازدادت فيه أهمية الجيش نتيجة للصراع الداخلي والحروب الاهلية من ناحية، وازدياد الاخطار الخارجية التي كانت تواجهها الامبراطورية من ناحية أخرى.

وشعر الاباطرة باهمية الجيش بالنسبة لهم، فحاولوا استمالة رجاله بكل السبل وقد سار أغلبهم على المبدأ القائل: "اجزّلوا العطاء للجند ولا تهتموا بالآخرين".

وهكذا أخذت الامبراطورية الرومانية تفقد صبغتها الدستورية القائمة على السلطة الثنائية : سلطة الامبراطور وسلطة مجلس الشيوخ. ولما كان الاباطرة يعتمدون على الجيش وحده للإبقاء على سلطانهم، فقد دفعهم هذا الى ارضاء الجيش من ناحية، وشجعهم على التجاوز على القوانين الرومانية وحقوق المواطنين الرومانيين من ناحية ثانية، والاستخفاف بالمؤسسات الدستورية من ناحية ثالثة.

ومنذ النصف الثاني من القرن الثالث تحكّم الجيش تحكّماً مطلقاً في تولية الاباطرة وخلعهم، بل أنّه قام في كثير من الأحيان برفع رجاله الى المنصب الامبراطوري، وكان فريق من هؤلاء رجالاً طيبين وجنوداً شجعان، ولكنهم كانوا جميعاً ضباطاً صغاراً من أصول ريفية، وذوي تعليم محدود، جاءوا من ثكناتهم ليتولوا مهام خيرة تتواءم بها كواهل أعظم السياسيين.

ويُعدّ بعض المؤرخين ما حدث في الجيش ثورة اجتماعية ثار فيها الريف الروماني والعناصر غير الرومانية، عن طريق الجيش، من البرجوازية وسكان المدن الرومانية المترفين والمتحضرين.

وتعرّضت الامبراطورية الرومانية الى مخاطر خارجية جسيمة منذ أوائل القرن الثالث الميلادي، فالفوضى التي سادت الامبراطورية، شجّعت القوى الخارجية على التجاوز على حدودها والتغلغل في أراضيها، ففي الشرق قامت أسرة حاكمة جديدة في بلاد الفرس هي الأسرة الساسانية سنة ٢٢٦ للميلاد. وقد استطاع الساسانيون باحتلال انطاكية لفترة من الزمن، كما هددوا بقية اقاليم الامبراطورية في الشرق. ومن الغرب توغلت القبائل الجرمانية داخل حدود الامبراطورية. والواقع أنّ وضع الامبراطور الدفاعي كان حرجاً الى درجة اضطرت معه الحكومة الرومانية الى صرف مبالغ طائلة على تحصين الكثير من المدن ومن ضمنها روما نفسها.

ثانياً: العوامل الاقتصادية والاجتماعية

قد تكون العوامل الاقتصادية والاجتماعية أكثر غموضاً، وأصعب توضيحاً من العوامل العسكرية والسياسية وعلى أية حال، فإنَّ هناك بعض التطورات الاقتصادية والاجتماعية تبدو واضحة المعالم، فالحروب الأهلية والفوضى السياسية أدت الى هبوط ملموس في عدد السكان، وقد أثر هذا تأثير بليغاً في مستوى الانتاجين الصناعي والزراعي. وقد تركت فعلاً مساحات شاسعة من غير زراعة. وبوجود حكومة مركزية ضعيفة لم تُعد الطرق آمنة فتعرّضت الطرق البرية الى عصابات من قطاع الطرق. كما تعرّضت الملاحة في البحر الابيض المتوسط هي الأخرى الى تهديد مستمر من قراصنة البحر. وانخفاض الانتاجين الزراعي والصناعي من جهة وفقدان الأمن في البحر وعلى اليابسة من جهة أخرى، أديا الى تدهور خطير في التجارة.

ومن المحتمل جداً، على الرغم من فقدان الاحصائيات الدقيقة في هذا الشأن، أن يكون الميزان التجاري الداخلي للامبراطورية في صالح ولاياتها الشرقية على حساب الولايات الغربية. ولعل هذا الاختلال في الميزان التجاري يفسّر بشكل رئيسٍ ما عانتة الاقاليم الغربية من الامبراطورية من شحّة ملحوظة في النقود. ومما زاد في هذه الشحة نقصان الانتاج في مناجم الفضة والذهب الاوربية. وحاولت الحكوم الرومانية علاج تلك الشحة بتزييف النقود (تخفيض نسبة المعدن الثمين فيها) فأدّى هذا العلاج الى التضخم، وإلى فقدان النقود لقيمتها، الأمر الذي زاد في ارباك الحياة الاقتصادية، وشلّ جميع مظاهر النشاط الاقتصادي.

لقد ترك هذا التدهور الاقتصادي أبلغ الأثر وأعمقه في الأقاليم الغربية، وأدّت هذه الأزمة الاقتصادية في المدن من جهة واستمرار الحكومة في جباية الضرائب من سكان تلك المدن من جهة أخرى الى انهيار الطبقة الوسطى، تلك الطبقة التي كانت من أنشط طبقات المجتمع الروماني.

ودفع هذا الوضع بالكثير من ابناء تلك الطبقة من التجار والصُّنّاع الى ترك المدن والفرار الى الريف للعمل بالزراعة هناك. وفي الريف الروماني أصاب المزارعين الأحرار وصغار الملاكين ما أصاب الطبقة الوسطى في المدن، فتعسّفت السلطة المركزية، وفداحة الضرائب المفروضة عليهم،

أدت بهم الى حالة بائسة من الفقر والاملاق، وأخذوا ينحدرون تدريجياً الى مستوى العبودية والقنانة.

وعلى النقيض من هذا الاجحاف الذي أصاب الطبقة الوسطى في المدن وصغار الملاكين والمزارعين والأحرار في الريف، أفادت طبقة كبار الملاكين من الأوضاع الجديدة. فسعة المقاطعات الزراعية التي ورثوها عن الآباء، والثراء البالغ ومنزلتهم الاجتماعية الرفيعة مكنتهم من الصمود أمام الازمات السياسية والاقتصادية التي اجتاحت الامبراطورية، ومهدت السبيل لهم للحصول على مكاسب وامتيازات سياسية واقتصادية جديدة على حساب الحكومة المركزية من جهة، وعلى حساب الطبقة الأخرى من جهة ثانية.

لقد تحدت طبقة كبار الملاكين السلطة المركزية الضعيفة، وامتنعت عن دفع ما كان يترتب عليها من ضرائب. وفي هذا الوضع الذي عجز فيه صغار الملاكين والمزارعين الأحرار عن منافسة كبار الملاكين، وضاقوا ذرعاً بتعسف جامعي الضرائب الحكوميين، اضطروا الى التنازل عن أراضيهم الى كبار الملاكين لقاء حمايتهم وتوفير العيش لهم. وهكذا فإن هذه الطبقة النشطة سارت هي أيضاً في طريق الاختفاء من المجتمع الروماني، وتحول أفرادها الى عبيد وأقنان.

ثالثاً: العامل الاداري

وفي خضم الفوضى السياسية والتدهور الاقتصادي مال الجهاز الاداري للامبراطورية الرومانية الى التدني والانحلال، فقد كانت الامبراطورية تضم بلداناً وأقاليم كثيرة جداً في اوربا واسيا وافريقيا، وكانت لجميع تلك البلدان والاقاليم - في أغلب الأحيان - خلفيات ثقافية متنوعة، ولها نظم ادارية متباينة. ونجحت الحكومة الرومانية في عصر قوتها، في دفع الجهاز الاداري الى العمل بدقة ومقدرة متميزتين، حتى وصفت الإدارة الرومانية بأنها أكفأ ما شهد التاريخ القديم، وعندما ضعفت الامبراطورية الرومانية، ودبّ الضعف في أجهزتها السياسية ونظامها الاقتصادي برزت التناقضات في أنظمتها الادارية. واستغلالموظفون الاداريون تلك التناقضات، واستغلوا كذلك ضعف الحكومة الرومانية، وفقدان الرقابة المركزية الصارمة فعاثوا في الإدارة فساداً. وبمرور الزمن أصيب الجهاز الاداري برمته بالشلل والعجز والفساد.

رابعاً: العوامل الأخرى

بالإضافة الى كل ما ذكر من أسباب فقد عُرِضت أسباب وعوامل أخرى، وطُرحت تفسيرات متباينة، فهناك من عزا سقوط روما لأسباب خُلقية تتلخص في ابتعاد الرومان عن الخلق الرفيع وانغماسهم بالرديلة، وهذا ما قاله بعض مؤرخي الرومان في أواخر عهد الامبراطورية، ورأى فريق آخر من المؤرخين الرومان أيضاً أنَّ ما حلَّ بروما لم يكن إلا نتيجة لغضب الآلهة الرومانية.